الأدب في سير أعلامه :

١٢ ـ تولســـتوى

[قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

في القوقاز

كان أكثر ما يجد من الأنس في صحبة صديقه سادو وفي صحبة رجل آخر هو إيشكا القوزاق صاحب الكوخ الذي كان يقيم به ، وذلك الذي برع في الصيد براعة عظيمة أو الذي برع في الحديث عن مقدرته ومهارته فيه ، وعن أيام شبابه الأولى وكيف كان الغواني يأخذن عليه كل سبيل ويفتتن به كل الافتتان ، ولقد جعل منه ليو صورة إروشكا في قصته « القوزاق » فبلغ في ذلك غاية الإبداع .

وكان الصيد من أحب ما يلهو به في ساعات فراغه ، وقد كانت الأرض غنية بطلبته من الأرانب البرية والثعالب ، وكان يصحبه إيشكا إلى قرى وأماكن بعيدة في الجبال حيث كانت تحيط بهما المخاطر في كثير من الحالات ...

وليته جعل للصيد كل فراغه ، فلقد عاد إلى اليسر منذ سنة على الرغم من مغالبته نفسه ابتغاء الإقلاع عنه ، وما استطاع أن يكف عنه إلا ستة أشهر بعد أن وقع في الشرك ولم يمض عليه في القوقاز أسبوعان ؛ وما إن عاد إلى التفرج على إخوانه الضباط وهم يلعبون حتى غلبه حب اللعب فأقبل عليه إقبال النهم الذي حيل بينه زمناً وبين الطعام ، ففي كتاب منه إلى عمته تاتيانا في شهر يناير سنة ١٨٥٢ أخذ يقص عليها كيف عاد إلى اليسر وكيف لحقته الخسائر من كل فج ! وظل هذا شأنه طول تلك السنة والتي تلتها حتى عاوده ندمه وضيقه .

أما عن جانب الجد من حياته في القوقاز ، فإنه في الجيش قد أبدى من البسالة في مواطن كثيرة ما استحق به صليب سان جورج للبطولة ، ولكنه لم يحزه فعلا نظراً لعجزه عن تقديم شهادات وأوراق خاصة كان لا بد أن يقدمها من يحظى بهذا الإنعام ...

وكان كما سلفت الإشارة إليه قد أخذ يكتب منذ سنة ١٨٥١ وفي شهر يوليو سنة ١٨٥٢ أتم كتابه « عهد الطفولة » باكورة

لا يضمرون عطفاً للارض التي يعيشون بفضلها ولا للدولة الفرنسية التي تحميهم ، كما أنهم على استعداد لمناصرة أي نظام يستطيعون في ظله أن يشبعوا نهمهم ، ولو قام ذلك النظام على أنقاض النظام الفرنسي الحالي . وربما بلغ بهم الأمر حد التآمر على الممثل الفرنسي لأنه لم يحقق لهم مأربا ، بل يبلغ بهم الأمر أن يحتجوا في جرأة ووقاحة إذا ماتال المواطنون حقاً من الحقوق البسيطة . إنهم ليسوا من صميم الفرنسيين ، ولكن فرنسا هي التي تتحمل مسؤولية ما يقومون به من أعمال لاستعباد الأهلين الفلاحين في هذه البلاد ، واستغلال جهودهم وامتصاص دمائهم وكل المساوىء التي تتمثل فيهم . فرنسا مسؤولة عن أعمالهم لأنها هي التي عملت على أن تكون حياتها في أفريقية الشمالية معتمدة على هذه الطائفة الخطيرة وهي التي أنشأتها وساعدت على تمكينها من أجود الأراضي الزراعية ومن مقاليد الحياة الاقتصادية عموما .

وسوف تستمر الفوضى في أفريقية الشمالية ما دامت هذه الطائفة موجودة فيها على هذا النحو الخطير ، لسبب بسيط هو أنها تستمد حياتها من هذه الفوضى ، فهي لا تصطاد إلا في الماء العكر ، ومن مصلحتها أن لا يصل الوطنيون إلى أي اتفاق مع الحكومة الفرنسية ، ولذلك فإن أول خطوة كان يجب أن تتخذها فرنسا هي أن تحد من نشاطها وتضرب على يدها وتكافح هؤلاء الناس الذين لا يستوحون في حياتهم سوى ملء الجيوب والبطون . أما تفتيت القومية في تلك البلاد فلعل هذه السنين الطويلة الحافلة بالمآسي كافية لكي تفهم الفرنسيين أنهم يحاولون المستحيل ، فقد برهن العربي في أفريقية الشمالية على أنه غير قابل لأن يفنى مهما كانت القوة التي تحاول أن تقضي عليه ، وربما عجز الخيال عن تصوير النتائج الخطيرة التي يمكن أن تنجم عن استمرار هذه الطائفة في التغوي والاستعلاء .

عبد المجيد بن جلون

فنه وخطوته الأولى صوب المجد وذهاب الصيت وأرسلها بإمضاء ل . ن . إلى مجلة شهيرة كانت تسمى « المعاصر » وكان يصدرها رجلان من أعلام الأدب وقتئذ وهما نكراسوف وبانييف ...

وظل ليو شهرين ينتظر رداً من المجلة وهو يسلم نفسه إلى الأمل الحلو تارة وإلى اليأس المرير تارة حتى جاءه كتاب من نكراسوف ينبئه فيه بقبول القصة للنشر ، ولكن على ألا يدفع لصاحبها أجراً حسب ما تعارف عليه أصحاب المجلات الأدبية يومئذ إذ كانوا لا يدفعون أجراً لكاتب غير معروف على أول شيء يقبل منه للنشر ...

وفرح تولستوى فرحا عظيما بالنشر فى ذاته فهذه أمنيته ، أما الأجر فما خطر بباله قط ؛ وازداد فرحا إذ جاءه كتاب ثان من نكراسوف يقول فيه إنه ازداد رضاء عن القصة وهو يصححها للطبع وأنه يعتقد أن مؤلفها ممن وهبوا المقدرة ، وإنه لأمر ذو أهمية أن يعلم المؤلف ذلك فى بداية عهده بالكتابة ... . .

ونشرت القصة فى عدد أكتوبر فسرعان ما حظيت بثناء أهل الفن جميعا وفى مقدمتهم تُرجنيف ذلك الذى كان اسمه من أشهر الأسماء يومئذ فى فن القصة ، ومنهم دستويفسكى وكان فى منفاه بسيبيريا فكتب إلى أحد أصدقائه يسأله من يكون ل . ن . هذا صاحب تلك القصة ...

ولم يكن بالأمر الهين أن يلتفت ترجنيف ودستويفسكى إلى هذا الكتاب فقد خلف هذان الكاتبان جوجول فى زعامة القصة واغتدى اسماهما أرفع الأسماء فى الجيل الذى أعقب جيل جوجول ...

وطابت نفس الفتى ليو نيقولا تولستوى وابتهج فؤاده بهذا النجاح ، وإن كان ضايقه من الناشر أنه غير عنوان الكتاب فجعله « تاريخ عهد طفولتى » بدلا من عنوانه الأصلى « عهد الطفولة » وذلك أن الكاتب كما ذكر فى أكثر من موضع لم يقصد بكتابه أن يكون ترجمة منه لنفسه ... وكذلك ضايقه أن الرقيب تناول بالحذف أو التغيير بعض عبارات الكتاب .

أخذت تتفتح الأكمام فى هذا الكتاب عن عبقرية الكاتب الناشىء الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وبدأت تنجلى خصائص فنه وتتضح مواهبه وفى مقدمة تلك المواهب إحساسه المرهف وقلبه الشاعر وذكاؤه الحاد وبصيرته النافذة إلى أعماق الأشياء المحيطة بتفاصيلها ودقائقها وروحه الدائبة التوثبة التى لا تعرف سأماً وحيويته الفكرية التى لا تقل عن حيويته البدنية .

أما فنه فكان قوامه الأصالة والصدق والسمو وتجنب ما لا عائدة منه فى التعبير والتصوير ، وكان يجمع فيه بين عاطفة الفنان ومهارة الصانع وتفطنه إلى كنه ما فى يده ؛ وكان يقبل على الكتابة فى تحمس شديد وإخلاص بالغ ، ثم يطيل النظر فيما يكتب فيمحو ويثبت ويحذف ويضيف حتى يستقر على وضع ترتاح نفسه إليه ويقرأ ما يكتبه على من يدخل عليه يتبين أثره فى نفسه ، كما كان ينفعل انفعالا شديداً إذ يتلو لنفسه ما كتب فتدمع عيناه ويهتز بدنه وترتعش يداه ، ثم يشيع السرور فى كيانه وتستقر الطمأنينة فى وجدانه .

كتب فى مذكراته فى هذه السن المبكرة يقول فى أوائل سنة ١٨٥١ « إن الخيال هو مرآة الطبيعة ، مرآة نحملها فى أنفسنا وفى هذه المرآة تصور الطبيعة ، وأجل الخيال هو أصفى المرايا وأصدقها وتلك هى التى نسميها العبقرية ... إن العبقرية لا تخلق وإنما هى تعكس ما ترى » وقال فى موضع آخر « إن الكتابة الأدبية ينبغى أن تكون أغنية منبعثة من صميم نفس الكاتب » .

لم يكن كتابه « عهد الطفولة » ترجمة لحياته ، ولم يكن كذلك عملا خياليا بحتاً ، وإنما كان وسطاً بين هذا وذاك ، ولعله كان إلى وصف حياته وبيئته الأولى أقرب . قالت زوجته فيما بعد « كانت كل الصور فيه مشتقة من أعضاء أسرته ، وكان الإسكندر إسلنيف هو صورة جدى لأمى » .

ولم يعن تولستوى فى كتابه هذا بالحوادث فى ذاتها فليس فيه إلا الحياة العادية التى يحياها الناس كل يوم ، وإنما عنى بإبراز الشاعر والأحاسيس التى تثيرها الحوادث فيما صور من الأشخاص فكان عمله أقرب إلى التحليل النفسى الذى سوف تمتاز به القصة الروسية عما قريب بوجه عام وفى فن دستويفسكى بوجه خاص .

ولقد وفق تولستوى توفيقاً كبيراً فى تصوير الخلجات النفسية فى كتابه هذا حتى ما يظن قارئه (إن لم يكن يعرف) أنه

عمل مبتدىء ، هـذا إلى دقة اللمسة الفنية والبراعة فى عرض الصور مع وضوحها وخلق المناسبات ، واختيار ما يحتاج إليه السياق فى غير استطراد ممل أو على حـد تعبيره « استبعاد كل ما لا ضرورة له وكل ما هو سطحى أو ضعيف » .

وللكتاب أهمية من ناحية أخرى إذ هو يرينا تأثره إلى حد ما بروسو وستندال ودكنز وبخاصة فى قصة دافيد كوبر فيلد التى هى فى الواقع حياة دكنز فى بيئته الأولى مقنعة كما شاء القصصى العظيم ، وكانت هذه القصة كما ذكرنا تنشر تباعاً يومئذ مترجمة إلى الروسية فى مجلة المعاصر ...

وحفزه نجاحه فى كتابه الأول إلى أن يكتب « عهد اليفاعة » فأقبل على ذلك فى نشاط وأمل وغبطة ؛ وكان أثناء كتابته « عهد الطفولة » قد كتب بعض الأقاصيص عن حياته فى الجندية ومنها « قطع الغابة » و « الغارة » ، وقد أرسل هذه الأخيرة إلى مجلة « المعاصر » فنشرتها وقد اطمأنت إلى القصصى الشاب ؛ ولكن الرقيب شوه بعض أجزاء هذه الأقصوصة حتى لقد اشتكى مؤلفها قائلا « لقد قضى عليها الرقيب ، فقد محا كل ما كان حسناً فيها أو بدله » .

وأقبل القصصى الشاب على مذكرته يثبت فيها ما يعتزم كتابته من قصص ؛ وكلما طرأ على خاطره موضوع يصلح لقصة عجل بإثباته ودون ما يعن له من ملاحظات ليعود إليها فى حينها ، وكلما أعجبته حادثة أو شخصية ممن يحيطون به كتبها مخافة أن ينساها ليجدها فيما بعد حين يأخذ فى بناء قصصه وهكذا بث نجاحه الأول فى نفسه كثيراً من الأمل والنشوة ...

* * *

أخذ يزداد سأم الفتى من القوقاز ومن حياة الجندية يوماً بعد يوم ، منذ أن ذهبت عن تلك الحياة جدتها ؛ واشتد ضيقه فى شهر أكتوبر سنة ١٨٥٢ حتى إنه ليكتب فى يومياته إنه يعد سنى نقيه من ذلك التاريخ ، ويقول فيما يُشعر بالأسى إنه لن يستطيع أن يعتزل خدمة الجيش إلا سنة ١٨٥٥ « وعندئذ أكون فى السابعة والعشرين من عمرى ، وما أكثر ما أكون من الكبر فى هذه السن ! ... ثلاث سنوات أخرى فى خدمة الجيش منذ اليوم ؟ إن على أن أقضيها فيما يجدى » .

وفى مستهل سنة ١٨٥٣ يقول « يا للناس من أغبياء ! إنهم جميعاً وبخاصة أخى لا يدعون الخمر ، وهذا شىء أراه كريها ... إن الحرب أمر باطل ... هى شر لا ريب حتى إن الذين يخوضون غمارها ليحاولون تلقاءها أن يخنقوا ضمائرهم . أحق ما أنا فاعل ؟ أرشدنى يا إلهى واغفر لى إن كنت أعمل باطلا » ...

والحق إنه لولا ما كان يصادفه فى القوقاز مما يكون مادة طريفة لفنه من الناس والحوادث والمناظر ، ما استطاع صبراً على العيش هناك ، ولا أطاق حياة الجندية وما فيها من خشونة وما كانت تبعثه فى نفس كنفسه من سأم وضيق بأيامها المتكررة المتشابهة ...

وبدأ يشكو أستاماً فى معدته وأمعائه وكان مرد ذلك إلى ما اعتاده من إسراف فى الطعام ، فقد كان من مرذول عاداته نهمه فى تناول أنواع من الأطعمة كان يحبها كالفطائر والمثلجات وأصناف الحلوى ، وكان لا يستطيع أن يصد نفسه عنها إذا تهيأت له ، أو يفطمها إذا غابت عنه ، وإنما كان يسعى إليها سعياً حتى يظفر منها بأوفر نصيب وإن مسه الضر ؛ وكان لا يكترث لنصح أو يشفق من أذى انكالا على ما يحس من قوة بنيته وشدة حيوانيته ، ورغبة منه فى تعويض ما يبذله من طاقة فى تلبية نداء جسده ... ؛ ولكن ذلك النهم قد أضر بمعدته ضرراً أخذ يزداد منذ كان فى القوقاز وسوف يتمكن منها حتى ليستعصى على العلاج حين يتقدم به العمر ...

وكذلك أخذ يشكو من الروماتزم والحمى والرعاف والتهاب الحلق فى كثير من الأحيان ، ونجده يكتب إلى عمته تاتيانا ذات مرة يقول لها « لا تظنى أننى أخفى عنك شيئا ... إنى وإن كنت متين البنية أعانى دائما ضعف الصحة » .

وفى شهر مارس سنة ١٨٥٣ يكتب فى يومياته قائلا « إن الخدمة فى القوقاز لم تجر على إلا المصاعب والكسل ومعرفة غير الأخيار ... إنه ينبغى أن أخلص منها أسرع ما أستطيع ... لقد فقدت ما كان معى من المال جميعاً ، ولا زلت مديناً بثمانين من الروبلات لأوجولين وستة ليانوفتش وخمسين لسكوفنين وثمان وسبعين لقنسطنطينوف ؛ وتبلغ جميعاً أربع عشرة ومائتين ، وقد أنفقت فضلا عنها ثلاثين ومائتين كانت كل ما أملك ... إن ذلك لسىء » .

(يتبع)

المصيف